الفصل الثالث

قضية تحرير المرأة بين عصر النبوة وقاسم أمين (نظرة تجديدية)

تحرير المرأة في عصر النبوة:
مكانة المرأة في التصور الإسلامي:

احتفى القرآن الكريم، أيما احتفاء بالمرأة ومكانتها، وأعطاها مكانة سامية، ولم يحظ مذهب من المذاهب، أو أي دين من الأديان بمثل هذا الاهتمام، فلقد كانت المرأة عند اليونان والرومان تعامل معاملة الرقيق، على النقيض من هذا نجد أن القرآن الكريم قد أفرد العديد من السور القرآنية التي تولى العناية بشئون المرأة مثل سورة النساء، وسورة الطلاق، والمائدة، والنور، والأحزاب، والمجادلة، والممتحنة، والتحريم.

فالقرآن الكريم، يقرر للمرأة حقوقها كاملة غير منقوصة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228].

وفي هذا الصدد يعلق الشيخ محمد عبده في تفسير المنار: «فهذه الجملة

تعطي الرجل ميزانًا يزن به معاملته لزوجته في جميع الشئون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها، بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي لهذه الآية]، وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء. فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها، إن لم يكن مثله في شخصه، فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل، أي أن كلًا منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسريه، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه وليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبدًا يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة، التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه»[1].

ويُعقب الأستاذ الإمام على كلامه يقول: «هذه الدرجة التي رُفِعَ النساء إليها لم يعرفن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده، وهذه الأمم التي كان من آثار تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن العلوم والفنون، لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الإسلام النساء إليها، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون إذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو

(1) الشيخ محمد عبده، تفسير المنار، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1972، ص 298.

ثلاثة عشر قرنًا ونصف، وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شيء كما كان في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالًا. ونحن لا نقول: إن الدين المسيحي أمرهم بذلك لأننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص إليهم كاملًا سالمًا من الإضافات والبدع، ومن المعروف أن ما كانوا عليه من الدين لم يرق المرأة و إنما كان ارتقاؤها من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي[1].

فالمرأة في نظر الإسلام، ليست مجرد متاع للرجل يتصرف فيها كيفما يشاء، و إنما لها حقوق وعليها واجبات، والمرأة في مسألة التكاليف هي والرجل سواء بسواء، كما جاء في سورة النساء الآية (1) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

إن القرآن يطالعنا في آيات كثيرة أن المرأة والرجل قد خُلِقا من أصل واحد، وأن القرآن قد أعلى من قدرها ومكانتها، وليس أدلُ على ذلك من تذكيره بحق الوالدين، بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 2].

لم تكن المرآة في التصور الإسلامي مجرد تابعة للرجل، أو مواطن من الدرجة الثانية بلغتنا المعاصرة، ولقد رفع القرآن من شأنها، وجعل لها المقام الرفيع.

ولما كانت المرأة مساوية للرجل في التكاليف والعبادات فهي مسئولة عن الثواب والعقاب في الآخرة، ولا تنفعها طاعة زوجها أو معصيته، إن هي

(1) المرجع السابق، ص 298.

زلت الطريق إلى الله، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: 195].

من أجل هذا، إن المرأة المسلمة، مسئولة مسئولية كاملة أمام الله عن دورها في الحياة، وعليها مدار الكثير من الأمور إذ هي مشاركة الرجل في تربية النشء، وفي تربية العقول، ومن ثم إقامة الحضارة والعمران.

ومن هنا أوجب الإسلام على المرأة أن تتعلم أمور دينها من معرفة العقائد.

فهناك صنف من الناس يريد من المرأة، أن تعود إلى عصور الظلام والتخلف وكأنها مجرد دمية يلهو بها الرجل، وصنف آخر من المغالين في الدين يلزمونها بأمور ما أنزل الله بها من سلطان. فالإسلام يريد المرأة المسلمة التي تعرف أين يكون موقعها الحقيقي من الحضارة.

وكما يقول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

فأين نحن اليوم... من حال المرأة في عصر النبوة، فلقد كانت المرأة في العهد النبوي واعية لشخصيتها التي قرر الإسلام الحنيف معالمها ثم إنها مارست الحياة في مختلف مجالات الحياة انطلاقًا من هذا الوعي.

وسوف أضرب بعض الأمثلة فقط - في الحدود المرسومة - لعرض الموضوع، إذ إن عرض دور المرأة ومشاركتها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، ومكانتها في التشريع يحتاج إلى دراسة مستوعبة، ربما يتيسر لنا الوقت والظروف في إنجاز هذه الدراسة.